﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يونس: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الحُكمِ القَدَريّ، والدِّينيّ ذَكَرَ الحكمَ الجزائيَّ

لَمّا ذَكَرَ الحقُّ ﷻ حُكْمَهُ القَدَريَّ وهو التَّدبيرُ العامُّ، وحُكْمَهُ الدّينيَّ وهو شَرْعُه، الَّذي مَضمونُه ومقصودُه عبادتُه وحدَه لا شريكَ له، ذَكر الحُكْمَ الجزائيَّ، وهو مُجازاتُه على الأعمالِ بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: أصلُ الرُّجوع: "العَوْد إلى مكانٍ منه البَدْء، وسواء كان مكانًا أو قولًا أو فعلًا. وسواء كان العَودُ بذاته أو بجزءٍ من أجزائه أو بفعلٍ من أفعاله"[2]. تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا، إذا عادَ[3]، والمَرْجِعُ: مَصدَرٌ ميميٌّ بمعْنَى الرُّجوعِ وهو العَودُ إلى الشَّيءِ، ومعْنَى الرُّجوعِ إلى اللّه: الرُّجوعُ إلى وقْتِ نَفاذِ حُكْمِهِ المُباشِرِ فيهم، ويجوزُ أن يكونَ المَرجِعُ كنايةً عنِ المَوتِ[4]. والمقصودُ في الآية: معادُكم إلى اللّه تعالى.

2) ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾: أصلُ (بدأ) يدلُّ على افْتِتاحِ الشَّيءِ، يُقالُ: بَدأتُ بالأمرِ وابْتَدَأْتُ، مِنَ الابْتِداءِ، واللّه تعالى المُبْدِئُ والبادِئُ[5]، وهو

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 357.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/257، والتَّحرير والتَّنوير: 11/223.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).

الَّذي أنْشأ الأشْياءَ واخْتَرعها ابْتِداءً مِنْ غير سابِقِ مثالٍ[1]، ويُقالُ "للسَّيِّدِ البَدْءُ"؛ لأنَّهُ يُبْدَأُ بذِكْرِهِ. وبدا الشَّيءُ يَبْدو بَدْوًا وبُدوًّا: ظَهَرَ. وأبْدَيتُه أنا: أظهرتُه[2].

والمرادُ بالبَدْء في الآية: الفِعلُ الَّذي لم يَسْبِقْ مُماثِله، فاللّه يبدأُ إيجادَ الخَلْق.

3) ﴿ٱلْخَلْقَ﴾: الخَلْقُ أصلُه: تَقْديرُ الشَّيءِ[3]، والخَلْقُ في كلام العَرَبِ على وجهين: ابتداعُ الشَّيء على مثالٍ لم يُسبقْ إليه[4]، والآخرُ: التَّقديرُ، تقولُ: خَلق اللّه الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا: أحدثَه بَعْدَ أن لم يَكُنْ، والخَلْقُ يَكونُ المَصْدَرَ ويَكونُ المَخْلوقَ[5]. ومن صِفات اللّه: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوزُ هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير اللّه ﷻ[6]. وتقولُ العَرَبُ: خَلَقْتُ الأديمَ: إذا قَدَّرتَه وقِستَه لتقطع منه مزادَةً، أو قربةً، أو خُفًّا[7]. والمقصودُ بالخَلْقِ في الآية: التَّقديرُ، أي: إيجادُ الأشياء بتقديرٍ ونظامٍ لا جُزافًا.

4) ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أصلُ (قسط): يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُتَضادَّيْنِ والبِناءُ واحِدٌ، فالقِسْطُ: العَدْلُ، يُقالُ: أقْسَطَ الرَّجُلُ يُقْسِطُ فهو مُقسِطٌ، أي: عَدَلَ[8]. وأما القَسْطُ - بِفَتْحِ القافِ - فهو: الجَورُ والظُّلْمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ فهو قاسِطٌ، والقُسوطُ: العُدولُ عنِ الحَقِّ. يُقالُ: قَسَطَ؛ إذا جارَ، يَقْسِطُ قَسْطًا[9]، ويأْتي القِسْطُ بمعْنَى الحِصَّةِ والنَّصيبِ، وجَمعُهُ: أقْساطٌ، تَقولُ: تَقَسَّطوا الشَّيْءَ بَيْنَهُم، أي: تَقاسَموهُ[10]. والقِسْطاسُ: الميزانُ[11]، والقُسوطُ: المَيْلُ عن الحَقِّ[12]. والمقصودُ بالقِسْط في الآية: العَدْلُ، وهو التَّسْويَةُ بين شَيئَيْن في صِفَةٍ والجَزاءُ بما يُساوي المُجْزَى عليه[13].

(1) ابن الأثير، النّهاية: (بدأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بدأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خلق).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(6) الخليل، العين: (خلق).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلق).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(9) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(12) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/92.

5) ﴿حَمِيمٍ﴾: أصلُ (حمّ): يَدلُّ على الحرارةِ، وعلى معانٍ أُخرى مُتفاوِتَةٍ، فالحَميمُ الماءُ الحارُّ. والاسْتِحمامُ: الاغتِسالُ به. والحَميمُ: العَرَقُ[1]؛ وسُمّيَ الحمّامَ حمّامًا، إمّا لأنَّه يُعرِّق، وإمّا لما فيه منَ الماء الحارّ[2]، والحَميمُ إن شِئْتَ كان ماءً حارًّا، وإن شِئْتَ كانَ جَمرًا تَتبخَّرُ به[3]. والحَميمُ: القَيْظُ[4]، وهو أيضًا الماءُ الباردُ؛ قال الأزهريُّ: فالحَميم عند ابنِ الأعرابيِّ مِنَ الأضداد، يكونُ الماءَ الباردَ ويكونُ الماءَ الحارَّ[5]. والحَميمَةُ: الماءُ يُسَخَّنُ على النّارِ[6]، والمُرادُ بالحَميمِ في الآية: الذّائب الشَّديد الحَرِّ مِنَ النّار.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تقريرُ عقيدةِ البعْثِ والجزاءِ في الدّارِ الآخرة

يُخبر اللّه تعالى أنَّ إليه وحْدَه مرجعَ الخلائق جميعًا، يومَ تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ، وعَدكم اللّه وعدًا حَقًّا لا يُخلَفُ، إنَّ اللّه يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ، وإيجادَه مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يعيدُه بعدَ مَوتِه، ويُحييه يومَ القيامةِ كما بدأه أوَّلَ مرَّةٍ؛ ليُثيبَ المُؤمِنينَ الَّذين عَمِلوا ما أمَرَهم اللّه به، وترَكَوا ما نهاهُم عنه، بالعَدلِ، وهو مجازاتُهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم، الحَسَنَ مِن الثَّوابِ في الآخرةِ، وللكُفّار في الآخرةِ ماءٌ قد أُغلِيَ، وبلَغَت حرارتُه الغايةَ، يَشوي الوجوهَ ويُقطِّع الأمعاءَ، ولهم أيضًا عذابٌ موجِعٌ؛ وذلك كلُّه بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (حم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حم - حمم).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حم - حمم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/117، 118، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/309، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/248، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 358.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفضلِ في الآيةِ:

بين الجُملتَين شِبْه كمالِ الاتِّصالِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، يشيرُ إلى أنَّ بَدْء الخَلْقِ هو ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، وإعادَتُهُ هي ما أفادَهُ قوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾، ولذلك فُصِلَتْ عَنِ الَّتي قَبْلَها لِما بَيْنَهُما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، على أنَّها يَجوزُ كَوْنُها خَبَرًا آخَرَ عَنْ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾، أوْ عنْ قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، وقد تَضَمَّنَتْ هذه الجُمْلَةُ إثْباتَ الحَشْرِ الَّذي أنْكَروهُ وكَذَّبوا النَّبيَّ ﷺ لِأجْلِهِ[1].

دَلالةُ حرفِ (إلى):

مرجعُكم إلى حَيْثُ المُجازاة، فلا حاكِمَ سِوَى الله

إنَّ كَلِمَةَ (إلى) لِانْتِهاءِ الغايَةِ[2]، والمُرادُ مِنْها: أنَّ مَرْجِعَهُم إلى حَيْثُ لا حاكِمَ سِواهُ، أو أنْ يَكونَ المُرادُ: أنَّ مَرْجِعَهُم إلى حَيْثُ حَصَلَ الوَعْدُ فيهِ بِالمُجازاةِ. و﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى أحدٍ سواهُ استقلالًا أوِ اشتراكًا[3].

بَلاغةُ تقديمِ الخبرِ شبْهِ الجملةِ:

المرجعُ إلى الله يومَ القيامةِ لا إلى أحدٍ سِواه

تَقْديمُ المَجْرورِ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ لإفادة القصْرِ، لكونِه المختصَّ بهذا الحدثِ دونَ غيرِه، أي: إليه وحدَه المرجعُ والمآبُ كما أنَّه وحده الخالقُ المُنشئُ؛ فالمرجعُ إليه وحدَه، قَطْعًا لِمطامعِ بعضِهم القائلينَ في آلِهَتِهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، يُريدونَ أنَّهُم شُفَعاءُ على تَسْليمِ وقوعِ البعثِ لِلْجَزاءِ، فإذا كان الرُّجوعُ إليه لا إلى غَيْرِهِ كان حَقيقًا بِالعِبادَةِ وكانَتْ عِبادَةُ غَيْرِهِ باطِلًا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/204.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.

إيثارُ صيغةِ المصدَر الميميِّ (مَفْعِل):

ناسبَ بقوّةِ التَّعبيرِ وزيادةِ مبناه عِظَمَ حدَثِ الرُّجوعِ إلى الله

صيغة المصدرِ الميميِّ يُؤتَى بها في الكلام لأنَّها تفوقُ صيغةَ المصدر الأصليِّ في "قوة الدِّلالَة وتأكيدِها"[1]، فإن استدعى السِّياق مزيدًا منَ التَّأكيد لجأ المتكلِّمُ إلى المصدرِ الميميِّ لتحقيق هذه الغايةِ[2]، ومن هنا فالتَّعبيرُ بـ(المرجع) في الآية قصدٌ إلى التَّذكير بأنَّ مرجعَ الجميع إليه سُبحانه[3]، وذلكم مَظنّةُ شدّةِ التَّعبير؛ ليُناسبَ عِظَمَ حدثِ الرُّجوع الى الله تعالى يوم البعث، والمصيرِ إليه في ذلك اليوم الَّذي يتجلّى فيه كمالُ القدرة، وتمامُ التّصرُّف بالإحياء بعد الإماتة، والرُّجوعِ إليه فعبَّر بقوة الرُّجوع؛ لأنَّ المصدرَ الميميَّ أبلغُ من جهة زيادة المبنى.

ويُرادُ بالمرجعِ نهايةُ الرّجوعِ

والمرجعُ: محلُّ الرّجوع، ومكانُه، أي: المكان الَّذي يعود إليه الخارجُ منه بعد أن يُفارقَه[4]، فهو بمعنى نهاية الرّجوعِ، وانتهاءِ أمرهم بالمصيرِ إليه سُبحانه يومَ القيامة.

إضافةُ المرجعِ إلى الضميرِ:

الخطابُ بصيغةِ الإضافةِ إلى ضمائرِهم تذكيرٌ لهم بحدَثِ الرُّجوعِ إليه

القصدُ منَ الإضافة إلى ضمير الجمعِ هاهنا وفي جميع مواضعِ ورودِ لفظ (المرجع) أنّه إلى اللّه وحْدَه مَرجِعُكم أنتم جميعًا - أيُّها النّاسُ - يومَ تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ. فتوجيهُ الخطاب إليهم بصيغةِ الإضافةِ إلى ضمائرِهم تذكيرٌ لهم بهذا اليوم، وذلكمُ الحدَثِ وهو ما لا يؤدّيه لفظُ المرجع مُستقلًّا عنِ الإضافة.

بَلاغةُ التَّوكيدِ بـ﴿جَمِيعًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِنْ ضَميرِ المُخاطَبينَ المُضافِ إليه

(1) عباس حسن، النحو الوافي: 3/236.

(2) إيهاب سلامة، قرينة السّياق ودورها في التقعيد النحويّ والتوجيه الإعرابيّ في كتاب سيبويه، ص: 339.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/12، ويُنظر: 1/214.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/126.

المَصْدَرُ العامِلُ فيهِ[1] فإنّه حالٌ منَ الضَّميرِ المجرورِ لكونه فاعلًا في المعنى؛ أي: إليه رجوعُكم مُجتمِعين، والجملةُ كالتَّعليل لوجوب العبادة[2]، وقد ذُكرت ﴿جَمِيعًا﴾ لبيان عموم مَنْ يُعيدُهم سُبحانه، فسيعود إليه البَرُّ والفاجرُ والمطيعُ والعاصي والمُفسِدُ والمصلحُ[3] وفيه توكيدٌ لمدلول القصْر، واختصاصِ الرُّجوع إليه لا إلى غيره.

اخـتـصـاصُ الـرُّجـوعِ إلى الـلـه، فـلا يُستثنَى أحدٌ منَ العودة إليه

فائدةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطلقِ ﴿وَعْدَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مَنْصوبٌ على مَعْنَى: وعَدَكُمُ اللّه وعْدًا؛ لأنَّ قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معناه: الوعْدُ بالرُّجوعِ، فعلى هذا التَّقْديرِ يكونُ قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرًا مُؤَكِّدًا لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، وقوله: ﴿حَقًّا﴾ مَصْدَرًا مُؤَكِّدًا لقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ فهذه التَّأكيداتُ قدِ اجْتَمَعَتْ في هذا الحُكْمِ، إذْ لَما أخْبَرَ ﷻ عنْ وُقوعِ الحَشْرِ والنَّشْرِ، ذكرَ بعده ما يدُلُّ على كونِهِ في نَفْسِهِ مُمكِنَ الوُجودِ ثُمَّ ذكرَ بعده ما يدُلُّ على وُقوعِهِ[4].

توكيدُ الرُّجوعِ إلى الـلـه، وهو مضمونُ الجملةِ المساويةِ للوَعْدِ

وانْتَصَبَ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ على المَفْعوليَّةِ المُطْلَقَةِ تَوْكيدًا لِمَضْمونِ الجُمْلَةِ المُساويَةِ له ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، ويُسمَّى موكِّدًا لِنفسِهِ في اصْطِلاحِ النُّحاةِ؛ لأنَّ مَضْمونَ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الوَعْدُ بإرْجاعِهم إليه، وهو مُفادُ وعْدِ اللّه، ويُقَدَّرُ له عامِلٌ مَحْذوفٌ؛ لأنَّ الجُمْلَةَ المُؤَكِّدَةَ لا تَصْلُحُ لِلْعَمَلِ فيهِ[5]، وحاصلُ التَّقْديرُ: وعَدَكُمُ اللّه وعْدًا حَقًّا.

عِلّةُ تعريفِ الوعْدِ بالإضافةِ إلى لفظِ الجلالةِ:

البعثُ وعْدٌ منه تعالى لا مِرْيَةَ فيه

لَمّا ذكرَ ما يَقتَضي التَّذكيرَ، وهو كونُ مَرجِع الجميعِ إليه ﷻ، أكَّد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/119.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3514.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/204.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90 - 91.

هذا الإخبارَ بالإضافة إلى اسمه الأعظم؛ للدَّلالةِ بأنَّ البعثَ وعْدٌ مِنهُ تَعالى لا مِريةَ فيه، ولا شكَّ في صِدْقِه[1]، فالوعدُ منه صادقٌ، عظيمُ الشّأن، بالغُ الأهميَّة؛ فناسبَ الإضافةَ والإظهارَ.

فائدةُ التَّوكيدِ بالمصدرِ الصَّريحِ ﴿حَقًّا﴾:

عِظَمُ يومِ البعثِ، والقولُ بإنكارِه مَظنّةُ حشْدِ التَّوكيداتِ

وانْتُصِبَ ﴿حَقًّا﴾ على المَفْعوليَّةِ المُطْلَقَةِ المُؤَكِّدَةِ لِمَضْمونِ جُملَةِ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ باعْتِبارِ الفِعْلِ المَحْذوفِ. ويُسَمَّى في اصْطِلاحِ النُّحاةِ مُؤَكِّدًا لِغَيْرِه، أيْ: مُؤَكِّدًا لِأحَدِ مَعْنَيَيْنِ تَحْتَمِلُهُما الجُملَةُ المُؤَكَّدَةُ[2]، فهو مصدرٌ آخرُ مؤكِّدٌ لما دلَّ عليه الأوّل[3]، أيْ: وعَدَ اللّه ذلك وعْدًا وحَقَّقَهُ حَقًّا صِدْقًا لا خُلْفَ فيه، ولا مِرْيةَ، ولا شكَّ[4].

دَلالةُ جملةِ الاستئنافِ ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾:

التَّعليلُ بالاستئنافِ في بدْءِ الخلْقِ وإعادتِه غايةٌ لجزاءِ المكلَّفين على أعمالِهم

واستأنَف الإخبارَ بقَولِه جلَّ في علاه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾، وهو استئنافٌ مَعناه التَّعليلُ بابتِداءِ الخَلْقِ وإعادَتِه، أي: كالتَّعليل لِما أفادَه ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وأنَّ الغرَضَ ومُقتَضى الحِكمةِ بذلك هو جَزاءُ المكلَّفينَ على أعمالِهم[5]، فإنَّ غايةَ البَدْءِ والإعادة هو الجزاءُ بما يليقُ[6].

تَوجيهُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

ناسبَ التّوكيدَ شدّةُ إنكارِهمُ البعثَ

ومَوْقِعُ (إنَّ) تَأْكيدُ الخَبَرِ نَظَرًا إلى إنْكارِهِمُ البَعْثَ، فَحَصَلَ التَّأْكيدُ مِنْ قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾. أما كونُهُ بَدَأَ الخَلْقَ فلا يُنْكِرونَهُ[7].

عِلةُ التَّعبيرِ عنِ البَدْءِ والإعادةِ بالمضارعِ:

التَّصويرُ بالمضارعِ شأنُ البَدءِ والإعادةِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَيانٌ لِمُتَعَلَّقِ الوعْدِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/91.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/119.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/308.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/12.
(6) الكشّاف، الزّمخشريّ: 2/328، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/91.

المُؤَكَّدِ مَرَّتَيْنِ بدَليلِه، أيْ: إنَّ شأْنَهُ تعالى أنْ يَبْدَأَ الخَلْقَ ويُنْشِئَهُ عند التَّكْوينِ، ثُمَّ يُعيدَهُ في نَشْأةٍ أُخْرَى بعد انْحِلالِهِ وفنائِهِ، فالتَّعْبيرُ بِفِعْلِ المُسْتَقْبَلِ ﴿يَبْدَؤُاْ﴾ لِتَصْويرِ الشَّأْنِ، وهو يشْملُ الماضيَ والمُسْتَقْبَلَ[1].

وقولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ استئنافٌ عُلِّل به وجوبُ المرجعِ إليه ﷻ؛ فإنّ غايةَ البدءِ والإعادةِ هو جزاءُ المكلّفين بأعمالِهم حسنةً كانت أو سيئةً[2].

دَلالةُ تعريفِ الخلْقِ:

سيقَ لفظُ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ على مُقتضَى العُمومِ؛ عمومِ الأنواعِ: تقديرًا وإيجادًا، وعمومِ آحادٍ، فيستغرقُ المخلوقاتِ المعلوماتِ في الأزلِ كافّةً، والموجوداتِ في الشَّهادة.

إفادةُ مُقتضَى العُمومِ إذِ استغرقَ لفظُ الخلْقِ المخلوقاتِ كافَّةً

إيثارُ لفظِ الخَلْق:

أُطلقَ المصدرُ هنا بمعنى: اسم المفعول؛ لأنَّ الخَلْق هنا بمعنى: المخلوق؛ إذِ اللّه هو الَّذي يبدأُ إيجادَ الخلقِ ثم يعيدُه بعد الموت، فيوجدُه حيًّا كهيئتِه الأولى[3]، والخَلْقُ أصلُه مصدرٌ، فلم يُجمَع، ومعناه: الجمعُ، فلذلك وحَّدَ الضَّمير بعدَه[4].

لَفْظُ الخَلْقِ عامٌّ يُرادُ بِهِ الخاصُّ وهو مَن يَحيا بعْدَ موته

ولفْظُ الخَلْقِ عامٌّ يُرادُ بِهِ الخاصُّ أوَّلًا وبالذاتِ، بدَليلِ ما قَبْلَهُ وما بَعْدَهُ مِنَ السِّياقِ، وقد أجمعَ عُلَماءُ الكوْنِ المادِّيُّونَ مِنْهُم والرُّوحيُّونَ على أنَّ الأرْضَ وجَميعَ الأجْرامِ السَّماويَّةِ، ما يُرَى مِنْها بالأبْصارِ والآلاتِ المُقَرِّبَةِ لِلْأبْعادِ وما لا يُرَى، كُلُّها قد وُجِدَتْ بَعْدَ أنْ لم تَكُنْ. وإنْ كانوا لا يَزالونَ يَبْحَثونَ في نَشْأةِ تَكْوينِها والقوَّةِ الأزَليَّةِ المُتَصَرِّفَةِ في أصْلِ مادَّتِها، كما أنَّهُم مُتَّفِقونَ على تَوَقُّعِ خَرابِ هذه الأرْضِ والكواكِبِ المُرْتَبِطَةِ معها في هذا النِّظامِ الشَّمسيِّ الجامِعِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/244.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/163.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/16.

لَها، على أنَّ أقْرَبَ الأسْبابِ الموافِقَةِ لِأُصولِ العِلْمِ الثابِتَةِ أنْ تُصيبَ الأرْضَ قارِعَةٌ مِنَ الأجْرامِ السَّماويَّةِ فَتَبُسُّها بَسًّا، حَتَّى تَكونَ هَباءً مُنْبَثًّا، كَما تُشيرُ إليه سورَةُ القارِعَةِ والواقِعَةِ وغَيْرُهُما[1].

بَلاغةُ الإضمارِ في: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾:

استُغنيَ بالمذْكور اقتصادًا، وللدّلالةِ عليه

في هذه الآيَةِ إضْمارٌ، كَأنَّهُ قيلَ: إنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ليَأْمُرَهُم بالعِبادَةِ، ثُمَّ يُميتُهُم ثُمَّ يُعيدُهُم، كما قال في سورَةِ البَقَرَةِ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَىٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البَقَرَة: 28] إلا أنَّهُ تَعالى حَذَفَ ذِكْرَ الأمرِ بالعِبادَةِ هاهُنا، لِأجْلِ أنَّهُ تَعالى قال قَبْلَ هذه الآيَةِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾؛ فحَذَفَ ذِكْرَ الإماتَةِ؛ لِأنَّ ذِكْرَ الإعادَةِ يَدُلُّ عَلَيْها[2].

وجهُ العطْفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

مناسبةُ الدَّلالةِ على التَّراخي الزَّمنيِّ في إعادةِ الخلْقِ بعد إفنائِه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: يوجِدُه حيًّا كهيئته يومَ ابتدأه، بعد فنائه وبَلائِه[3]، فالإعادةُ ليست بدءَ الخلق فقط بل بعد بدئِه، وإهلاكه؛ إذ معنى الإعادة وجودٌ ثانٍ لما وُجدَ أوّلًا بعد فنائِه، فتدلُّ الإعادةُ على الإفناء، والإهلاكِ اقتضاءً؛ إذ هو اللّازمُ المُتقدّمُ لها[4]، فناسبَ ذلك اصطفاءَ الحرف الدّالِّ على التّراخي الزّمنيّ، لا الفورِ والآنِ.

بَلاغةُ الطِّباق بين البدْءِ والإعادةِ:

في استدعاءِ الطِّباقِ ردٌّ على المُنْكِرين البعثَ

إنَّ بين البَّدءِ والإعادةِ طِباقَ إيجابٍ؛ فيكونُ البدءُ، وتكونُ الإعادة؛ بل هي الأهونُ عليه زيادةً في كمال الفعل والتَّباعدِ في أصله، كما ورد في سياقٍ آخرَ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الرّوم: 27][5]. وفي الطِّباقِ ردٌّ على المُشركينَ الّذين

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/244.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/205.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/20.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/391.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 357.

أنكَروا البَعثَ، حيث احتَجَّ اللّه عليهم بالنَّشأةِ الأولَى؛ بأنَّ القادِرَ على ابتداءِ الخَلقِ قادِرٌ على إعادتِه، والّذي يرى ابتداءَه بالخَلقِ، ثمَّ يُنكِرُ إعادتَه للخَلقِ، فهو فاقِدُ العَقلِ مُنكِرٌ لأحَدِ المِثْلَين، مع إثباتِ ما هو أَوْلى منه، فهذا دليلٌ عَقليٌّ واضحٌ على المَعادِ[1].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِيَجۡزِيَ﴾:

تعليلُ الرُّجوعِ إلى اللّه المَلِكِ فوعدُه ثابتٌ لا يَتبدَّلُ

أفادتِ اللّامُ في ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ التَّعليلَ، أي: تعليلَ الرُّجوعِ إلى اللّه المَلِكِ الحقِّ والإعادةِ بعد البدءِ، وفي التَّعليلِ بيانُ الغايةِ والمآبِ، وتحقيقُ وعدِ اللّه تعالى الحقِّ الثّابتِ الَّذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وقد ذكرَ الإيمانَ والأعمالَ الصّالحةَ، كشأنِ بيانِ اللّه تعالى عند ذِكرِ الثَّوابِ، ولم يذكرْ ﷺ الجنَّةَ والنَّعيمَ المقيم، ولكنْ ذَكَر ما يتضمَّنها وزيادةً؛ فقال اللّه تعالى: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: الجزاء بالقسط، فهو عدلٌ منَ اللّه تعالى، وعدلُه وفضلُه يوجِبان الجنّةَ وما فيها[2]، وهذا تَعْليلٌ لِلْإعادَةِ، أيْ يُعيدُهُ لِأجْلِ جَزائِهِم[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإشـــارةُ إلى عُمومِ المؤمنين

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صيغةُ عمومٍ، فيدخلُ تحتَها جميعُ المؤمنين، أي: كلُّ مؤمنٍ منَ المؤمنين الّذين يعملون الصّالحاتِ[4] وكلُّ مَن اتَّصف بالإيمان بعد الكُفر على الإطلاق من أيِّ طائفةٍ كان، وفي أيِّ وقتٍ كان[5].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ءَامَنُواْ﴾ عنِ المؤمنين:

تحقيقُ وقوعِ جزائِهم، وتعجيلُ البِشارةِ لهم

جاء التَّعبير بصيغة الماضي لتحقيقِ الوقوع، وتعجيلِ البِشارة[6]، أي: لجعْلِ المتوقَّعِ الَّذي لابدّ من وقوعه بمنزلةِ الواقعِ[7].

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/122.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3514.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/245.
(4) المقدّم، تفسير القرآن الكريم: 4/112.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/190.
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/548.
(7) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/96.

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

قُدِّمَ أهلُ الإيمان لتأنيسِهم وإكرامِهم بأنَّ جَزاءَهم قد استحَقّوه بما عَملوا، وليتبَيَّنَ ما يقَعُ بالكافرينَ مِنَ العذابِ الأليم، ففَصَلَهم منَ المُؤمنينَ؛ ليُبَيِّنَ ما يَجزيهم به ممّا هو عدلٌ غيرُ جَورٍ[1]، فالإيمانُ سبيلُ عملِ الصّالحات، وعلّةٌ أصيلةٌ في تحقّقِها، والحاصلُ: أنَّ تقديمَ الإيمانِ على الأعمالِ وإفرادَه تشريفٌ[2]، وتبجيلٌ، وتوقيرٌ.

التَّشريفُ لهم، فالإيمانُ سبيلُ عملِ الصّالحات، وعِلَّةٌ أصيلةٌ في تحقُّقِها

ويشيرُ أيضًا إلى أنَّ جَزاءَهُم قَدِ اسْتَحَقُّوهُ بما عَملوا، كقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النَّحل: 32]. ومِنْ أعظَمِ الكَرَمِ أنْ يوهِمَ الكَريمُ أنَّ ما تَفَضَّلَ بِهِ على المُكَرَّمِ هو حَقُّهُ وأنْ لا فَضْلَ له فيه[3].

أعْظَمُ الكَرَمِ أنْ يوهِمَ الكَريمُ أنَّ ما تَفَضَّلَ بِهِ على المُكَرَّمِ هوَ حَقُّهُ وأنْ لا فَضْلَ له فيهِ

وَجْهُ تخصيصِ المؤمنين بـ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾:

يمكنُ تفسيرُ وجهِ تخصيصِ المؤمنين بالقسطِ:

بأنَّ القِسْطَ إذا كان مُفَسَّرًا بِالعَدْلِ، فالعَدْلُ هو الَّذي يكونُ لا زائدًا ولا ناقصًا، وذلك يَقْتَضي أنَّهُ تَعالى لا يَزيدُهُم على ما يَسْتحِقُّونَهُ بأعْمالِهِم، ولا يُعْطيهِم شَيْئًا على سَبيلِ التَّفَضُّلِ ابْتِداءً، والجَوابُ على هذا أنَّ الثَّوابَ أيْضًا مَحْضُ التَّفَضُّلِ. وأيْضًا فَبِتَقْديرِ أنْ يُساعِدَ على حُصولِ الاسْتِحْقاقِ، إلا أنَّ لَفْظَ القِسْطِ يَدُلُّ على تَوْفِيَةِ الأجْرِ، فَأما المَنْعُ مِنَ الزِّيادَةِ فَلَفْظُ (القِسْطِ) لا يَدُلُّ عَلَيْهِ[4]. أمّا تَخْصيصُ المُؤْمِنينَ بذلك فيَدُلُّ على مَزيدِ العِنايَةِ في حَقِّهِم، وعلى كونِهِم مَخْصوصينَ بِمَزيدِ هذا الاحْتياطِ[5].

أفْـردَ المؤمنين بالقسطِ لمَزيدِ العِنايةِ في حَقِّهم، وليُبيِّنَ ما يقعُ للكافرِ منَ العذابِ

فإنْ قيل: لمَ أفرَدَ المؤمنين بالقسْطِ دونَ غيرهم وهو يَجزي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 1/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/206.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/206.

الكافرَ أيضًا بالقسط؟ قال ابنُ الأنباريِّ: لو جمع اللّه الصِّنفين بالقسط لم يتبيّنْ ما يقعُ بالكافرين منَ العذاب الأليم، ففصلَهم من المؤمنين ليُبيِّنَ ما يَجزيهم به مما هو عدلٌ غيرُ جَورٍ، فلهذا خَصَّ المؤمنين بالقسط، وأفردَ الكافرين بخبرٍ يرجعُ إلى تأويلِه بزيادةٍ في الإبانةِ والفائدةِ[1].

إيثارُ لفظِ القِسطِ دونَ العَدْل:

تعظيمُ جَزاءِ المؤمنين أصحابِ الصّالحاتِ الباقياتِ، وأنَّه مُماثِلٌ لِصَلاحِ أعمالِهم

القسطُ تَسْوِيَةٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ في صِفَةٍ، ويكونُ الجَزاءُ بما يُساوي المُجْزَى عليه، فَتُفيدُ الباءُ أنَّهُم يُجْزَوْنَ بما يُعادِلُ أعْمالَهُمُ الصالحَةَ، فيكونُ جَزاؤُهُم صَلاحًا هنالك وهو غايَةُ النَّعيم، وأنَّ ذلك الجَزاءَ مُكافَأةٌ على قِسْطِهِم في أعْمالِهِم في عَدْلِهِم فيها؛ بِأنْ عَمِلوا ما يُساوي الصَّلاحَ المَقْصودَ مِنْ نِظامِ هذا العالَمِ[2].

والإجْمالُ هُنا بَيْنَ مَعْنَيَي الباءِ مُفيدٌ لِتَعْظيمِ شَأْنِ جَزاءِ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالِحاتِ مع الإشارَةِ إلى أنَّهُ جَزاءٌ مُماثِلٌ لِصَلاحِ أعْمالِهِم[3].

دَلالةُ الواو في ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

استئنافٌ لبيانِ جزاءِ الكافرين محلِّ تشوُّفِ السّامعِ

الواو: استئنافيةٌ؛ فجُملَةُ: والَّذينَ كَفَروا إلى آخِرِها اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لِأنَّهُ لَما ورَدَ ذِكْرُ جَزاءِ المُؤْمِنينَ على أنَّهُ العِلَّةُ لِرُجوعِ الجَميعِ إليه، ولَم يُذْكَرْ في العِلَّةِ ما هو جَزاءُ الجَميعِ، لا جَرَمَ يَتَشَوَّفُ السامِعُ إلى مَعْرِفَةِ جَزاءِ الكافِرينَ، فَجاءَ الاسْتِئْنافُ لِلْإعْلامِ بذلك[4].

دَلالةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

جزاءُ المؤمنين محلُّ عِنايةٍ، وجزاءُ الكافرين محلُّ إعراضٍ

نُكْتَةُ تَغْييرِ الأُسْلوبِ حَيْث لم يُعْطَفْ جَزاءُ الكافِرينَ على جزاءِ المُؤْمِنينَ، فَيُقالُ: (وَيَجْزِيَ الَّذينَ كَفَروا بِعَذابٍ.. إلَخْ) كما في قوله:

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/8.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الكهف: 2]، هو الإشارَةُ إلى الاهْتِمامِ بِجَزاءِ المُؤْمِنينَ الصالِحينَ وأنَّهُ الَّذي يُبادِرُ بالإعْلامِ به، وأنَّ جَزاءَ الكافِرينَ جَديرٌ بالإعْراضِ عَنْ ذِكْرِهِ لَوْلا سُؤالُ السّامعين[1].

تأكيدُ شدّةِ العقابِ بالجملة الاسميّةِ المؤكّدةِ للحميمِ:

لازَمـوا صفـةَ الـكـفـرِ حتى أذاقتْهُمُ المصيرَ المُهلِكَ بالشَّرابِ الحميمِ

عبَّر بالجملة الاسميّةِ المؤكّدة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لدلالتِها على الثُّبوت، والاستمرار؛ لأنَّ الجملةَ الاسميّةَ تدلُّ على أنَّها صفةٌ ملازمةٌ للمُتَّصِفِ بها[2]، وجاءت مؤكِّدةً لشدَّة العقابِ الحميم، وذمِّهم بملازمتِهم لهذه الصّفةِ، وعدمِ فَكاكِهم عنها، حتى أوردتْهُمُ المهالكَ، وأذاقتْهُم الشّرابَ الحميمَ.

عِلّةُ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

وُصِفوا بالكُفر لأنّهم لازَموا الكُفرَ فعلًا

التَّعبيرُ بالموصول يُشعرُ بأنَّ الصِّلةَ سببُ الحكم، فهؤلاء حُكمَ عليهم بالعذاب، لأنَّهم كفروا، ومتى تحقَّقَ السَّببُ، تحقَّق الحكمُ بلا فرقٍ بين قبيلٍ وقبيلٍ، وأنَّ عذابَ الكفّار دائمٌ، وآلامَه مستمِرَّةٌ[3]، وإنَّ اللّه ﷻ إذْ قد حكم بذلك، وهو أنَّ الّذين كفروا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ، فقد أشارَ إلى أنَّ السببَ في ذلك كُفرُهم؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالموصول يُشيرُ إلى أنَّ سببَ هذا الحُكم هو الكفرُ[4].

تَوجيهُ الرَّفعِ بالابتداءِ، والنَّصبِ على العطفِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

يـومَ البـعـثِ يَجزي تعالى كلَّ فريقٍ بما عمِلَ

ابتدأ جلّ ثناؤه الخبرَ بما أعدَّ للّذين كفروا منَ العذاب، وفيه معنى العطفِ على الأوَّل؛ لأنَّه تعالى ذِكْرُه عمَّ بالخبر عن مَعادِ جميعِهم - كُفّارِهم ومُؤمِنيهم - إليه، ثم أخبر أنَّ إعادتَهم ليجزيَ كلَّ فريق بما عمل المحسنَ منهم بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءة، ولكنْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.
(2) ابن العُثيمين، تفسير العُثيمين، الفاتحة والبقرة: 2/282.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1719.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1373.

لمّا كان قد تقدَّم الخبرُ المُستأنفُ عمّا أُعدّ للّذين كفروا منَ العذاب، ما يدلُّ سامعَ ذلك على المرادِ، ابتدأ الخبرَ، والمَعنِيُّ العطفُ، فقال: والّذين جحدوا اللّه ورسولَه وكذَّبوا بآيات اللّه ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾ في جهنم ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وذلك شراب قد أُغلي واشتدّ حرُّه[1].

اللّامُ في: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾:

تفيدُ اللّامُ في قوله جلّ في عُلاه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾، أنه أمرٌ مختصٌّ بهم، وليس لهم غيرُه[2] جزاء ملازمتهم الكُفرَ، واتّصافهم به، فاستحَقّوه بفعلهم كما استحقّ المؤمنون أنواعَ النَّعيم المقيمِ في الجنّة بفعْلِهم.

نوعُ العذابِ هذا مختصٌّ بهم

التَّعبيرُ عنِ الحميم بصيغةِ (فَعيل):

الحميمُ: شرابٌ قد أُغلِيَ واشتدَّ حرُّه، حتى إنّه فيما ذُكرَ عنِ النّبيّ ﷺ لَيَتساقطُ من أحدهم حين يُدنيه منه فروةُ رأسه، وكما وصفَه جلّ ثناؤه: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۢ﴾، وأصلُه مفعولٌ صُرِف إلى (فَعيل) بقصد المُبالغة[3]، والوصفُ به دليلُ كوْنِ الحميم صار صفةً ثابتةً لهذا العذابِ ملازمةً له حتى وُسِمَ به.

الوصْفُ به للمبالغةِ ودليلٌ على كَوْنِ الحميمِ صفةً ثابتةً لهذا العذابِ

وَجهُ تخصيصِ كوْنِ الشَّراب منَ الحميم:

خُصَّ الشَّرابُ مِنَ الحَميم بالذِّكرِ مِنْ بَيْنِ أنْواعِ العذابِ الأليم لِأنَّهُ أكْرَهُ أنْواعِ العذابِ في مَألوفِ النُّفوسِ[4]، فالنّفسُ تتأبّى الشّرابَ الحارَّ، وتألفُ الباردَ العذبَ؛ فكيف بالشّديدِ الحرارةِ، أوِ الذّائبِ الشَّديدِ الحرِّ مِنَ النّار؟!

الحميمُ أكرهُ أنواعِ العذابِ للنُّفوس

بَلاغةُ عطْفِ العامّ على الخاصّ: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

وقولُه: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من باب عطف العام على الخاصِّ، وكان بعضُهم يقول: إنَّما أتى به كذلك؛ لأنَّ الشَّرابَ أمرٌ وجوديٌّ

ورد العمومُ بعد الخصوصِ إمعانًا في الذَّمِّ للكفّارِ ودفعًا لتوهُّم إرادةِ نوعِ عذابٍ واحدٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/22.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3515.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/22.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.

محسوسٌ، والعذابَ أمرٌ معنويٌّ، والوجوديُّ لا يدخل تحت المعنويِّ، فهما مختلفان[1]، وأعمَّ العذابَ بعد تخصيصه، إمعانًا في الذّمّ، ودفعًا لتوهُّم الاقتصارِ على العذاب الأوَّل دونَ غيره.

بَراعةُ المقابلةِ بين جزاءِ الكافرين وجزاءِ المؤمنين:

اقتضتْ عدالةُ الله وتفضُّلُه أن يكونَ جزاءُ كلِّ امرئٍ بما عملَ

ذَكَر القِسطَ في جزاء الّذين آمنوا على أنَّه مقابلةٌ بين عملٍ صالحٍ قويمٍ مستقيمٍ وجزاءٍ عدلٍ قويمٍ، وذَكَر ما يستحقُّه المنحرفون من غيرٍ أن يذكرَ ما يدلّ على أنَّه جزاءٌ، وذلك للدّلالة على أنّ الجزاءَ مع عدله تفضلٌ منَ الله، وأنَّ الكافرين حُرموا هذا الفضلَ ونالهم ما يستحقّون، ولبيان أنَّ الرُّجوعَ إلى الله تعالى يقترنُ بالجزاء الَّذي هو عدلٌ، وأنَّ النّاس خُلقوا ليقوموا بالإصلاح، وأنَّ الإعادة ليُجازوا على هذا الإصلاح، أمّا المنحرفون المفسدون فإنَّهم ينالون ما يستحِقّون؛ بسبب انحرافِهم عنِ الفطرة الَّتي فُطرَ عليها النّاسُ[2].

دَلالةُ الباءِ في: ﴿بِمَا﴾:

إفادةُ تعظيمِ جزاءِ الّذين كفروا

الباءُ سَبَبيّة، أي بِسَبَبِ كُفْرِهم، وقال أبو البقاء: "إنَّ الباء تتعلَّقُ بمحذوفٍ، أي: جوزوا بما كانوا"[3]، ومعناها هنا مفيدٌ لتعظيم جزاءِ الّذين كفروا مع الإشارةِ إلى أنَّه جزاءٌ مماثلٌ لفسادِ أعمالِهم.

دَلالةُ (ما):

سببُ الجزاءِ الكُفرُ

(ما) مصدَريَّة؛ ومعناه: ويَجْزيَ الَّذينَ كَفَروا بِسَبَبِ كُفْرِهم، وتَكْريرُ الإسْنادِ يَجْعَلُ الجُملَةَ الظَّرْفيَّةَ خَبَرًا لِلْمَوْصولِ لِتَقْويَةِ الحُكْمِ[4].

عِلّةُ مجيءِ فعْلِ الكَوْنِ ماضيًا مجموعًا:

الدَّلالةُ على أنَّهم واظَبوا على الكُفْرِ بجَمعِهم وتَواصَوْا بالثَّباتِ عليه

عبَّر بفعل الكونِ الماضي المجموع؛ لِلدَّلالةِ على مواظَبَتِهم على الكُفْرِ جميعًا، وثباتِهم عليه، وتواصيهِم على عدم التَّفَصّي منه،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/335.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3515.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/270.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.

وممارسةِ أنواع الاستهزاء والتهكُّم والسُّخرية بالمؤمنين، ولربطِ العقوبة بموجبها وجودًا وعدمًا؛ تفضُّلًا منه ﷻ.

سِرُّ الجمعِ بين الماضي، والمضارع في ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾:

المبالغةُ في استحقاقِهمُ العذابَ وأنَّه حقٌّ مقرَّرٌ لهم

الجمعُ بين صيغتَي الماضي والمضارع؛ للدّلالة على مُثابرتِهم على الكُفر، ومواصلتِهم على أدائه، وتغييرِ النّظم الكريمِ للمبالغةِ في استحْقاقِهمُ العقابَ بجعله حقًّا مُقرّرًا لهم[1].

إيثارُ لفظِ الكُفرِ على غيرِه:

الكفرُ يحجبُ إبْصارَ الآياتِ

آثر البَيانُ القرآنيُّ الكُفرَ على غيره منَ المُصطلحات المقاربةِ له؛ لتمامِ تأديتِه المُسمَّى المقصودَ؛ على اعتبار أنّ الكُفرَ يحجبُ الفطرةَ، ويطمِسُ البصيرةَ عن آيات التَّقوَى والنّظر.

وَجهُ الإتيانِ بفعلِ الكُفرِ مضارعًا في فاصلةِ الآية:

استمرَؤوا الكُفرَ واعْتادوه

جيء بفعل الكُفر مضارعًا دلالةً على استمرار ذلك في كلِّ زمان[2] ودوامِهم على الكفر، ومواظبتِهم عليه، واستمرائِهم إيّاه؛ جُحودًا، وإنكارًا، وعِنادًا.

سِرُّ تَكْرارِ فعلِ الكُفْر:

دوامُهم على الكُفرِ عِلّةُ تعذيبِهم

تكريرُ إسنادِ فعلِ الكُفْر لهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وفي قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ يجعلُ الجملةَ الظَّرفيَّةَ خبرًا للموصولِ لتقويةِ الحُكم، وللجمعِ بين صيغتَي الكُفر ماضيًا ومستقبلًا؛ للدَّلالة على مواظبتِهم عليه، وإصرارِهم على رفض الاعتقادِ الحقّ، وكونِ دوامِهم على الكُفر علّةَ تعذيبِهم، واستحقاقِهم ذلك[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القِسْطُ والعدلُ:

القِسْطُ هو العدْل البيِّنُ الظاهِر، ومِنْه سُمِّي المِكْيالُ قسطًا والميزانُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/270.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/120.

القِسْطُ والعدلُ لفظان يَتعاوَرانِ

قِسْطًا؛ لِأَنَّهُ يصوِّر لَك العدْل في الكَيل والوَزْن حَتَّى تراهُ ظاهرًا، وقد يكونُ منَ العدْل ما يخفَى، ولِهَذا قُلْنا إنَّ القِسْط هو النَّصيبُ الَّذي بُيِّنت وجوهُه، وتَقَسَّطَ القَوْم الشَّيْءَ تقاسَموا بِالقِسْطِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»